مقدمة :

آدم الصغير !!

لقاء فى «البوتقة»

فى زيارة لأمريكا ، التى توصف عادة بالبوتقة التى ذابت فيها كل السلالات البشرية المهاجرة مكونة الثقافة الحلم ، جلست فى مطار كيندى بنيويورك منتظر الطائرة المتجهة إلى واشنطون . جاءت جلستى فى مواجهة سيدة شابة ، يبدو من هيئتها أنها ممن يسمون بالملونين . وقد عرفت منها أنها إبنة لأمريكى أسود تزوج من سيدة بيضاء . لم يكن هذا هو المهم . فالمثير للإنتباهاء والإعجاب الشديد كان الطفل الرائع الذى تحمله ، الذى لاحظت أننى لم استطع أن أمنع نفسى من تأمله والتدقيق فى قسماته التى تستعصى على الوصف . لقد شاءت الأم الشابة أن تساعدنى فى تفسير الإنبهار ، فعلقت بسعادة ، لا تخلو من الفخر ، قائلة : «معك حق ، فمايك نتيجة لقاء أربع قارات ، جاء أبناؤها إلى أمريكا منذ مدة طويلة » . لقد كان أبو مايك أيضا إبنا لسيدة أسيوية ورجل من أمريكا الجنوبية . وفى لحظة ، طافت فى ذهنى معا فى الآية الكريمة التى تعلمنا أن الله قد جلعنا شعوبا وقبائل لنتعارف ؛ ألا يعد «مايك» نتيجة من نتائج هذا التعارف ؟ لقد تذكرت هذا اللقاء مرات عديدة ، وفى كل مرة أتساءل : لماذا يسمى هذا الطفل بمايك ؟ أليس من الأجدر أن يكون إسمه «آدم الصغير» ؟

تاريخ «آدم الصغير»

لاشك أن التجربة البشرية الحية التى أتت لنا بآدم الصغير ، وغيرها من آلاف التجارب المختلفة فى درجة التعارف والإختلاط ، لم تعد كافية لطموح الإنسان . لقد كانت تجاربا ثقافية للتجميع ، بعد أن تفرق أبناء آدم فى أنحاء المعمورة . ولم تكن تجارباً سهلة ، فوراؤها تاريخ طويل من الحب والكراهية ، والحرب والسلام ، والعدل والظلم ، والقهر والحرية . كانت الهجرة فى أغلبها جبرية ، سعيا وراء الرزق أو هرباً من الظلم ، وأحيانا بالإختطاف كما حدث فى تجارة العبيد . وهذه الهجرة تعنى بيولوجيا إنتقال ممثلين «لمستودع جينى» gene pool لعشيرة من العشائر للعيش والإختلاط مع أبناء مستودع جينى آخر . ولقد كانت التجربة الأمريكية بالذات ذات طابع «كوزموبوليتانى» ، حيث تراكمت فيها هجرات ممثلى كل أوجل المستودعات الجينية البشرية ، وبعد معاناة طويلة من التفرقة العنصرية والتمييز العرقى والثقافى ، ورغـم عدم الإختفاء التام لآثارهما فى أرض الواقع ، إزداد هامش الإختلاط باستمرار ، وتم تدعيمه بالقوانين المدنية . وهكذا ظهر مايك أو آدم الصغير إلى الوجود . ومع إزدياد الآثار الثقافية والسياسية والبيولوجية (؟) للهجرة تظهر الدعوة إلى قوانين تنظمها بين الحين والآخر ، وتظل إدعاءات التفرقة التى تستند أحيانا إلى علم زائف يتحدث عن «المنحنى الجرس» للذكاء وإختباراته ، ويقدم الفروق الوراثية بين العشائر البشرية كمؤشرات للتفوق أو الدونية . ورغم سهولة إثبات تهافت هذه الإدعاءات علميا ، إلا أن «آدم الصغير» يكفينى ، فهو يقدم الدليل الحى على روعة الإختلاط والتعارف بين الشعوب والقبائل البشرية . إنه إقتراب من الأصل المشترك :

«آدم الكبير» عليه السلام . ولكن ، لماذا لا تكفينا هذه التجربة البشرية ، كما ذكرت فـى بداية الفقرة ؟ دعـونا نناقش ذلك فى ضوء العلاقة القوية بين الثقافة والتكنولوچيا .

ثقافة وتكنولوچيا

فى المسيرة الطويلة للتفريق والتجميع ، كانت البداية مع تجمعات صغيرة ، يصيغ كل منها لنفسه ثقافة فرعية منعزلة ، يتكيف بها مع ظروفه الحياتية . ومع هذه العزلة يترسخ مفهوم «نحن» و«هم» عند الإحتكاك بين جماعة وأخرى ، وتتسم العلاقة بالحذر وبالكراهية والرغبة فى السيطرة والإستعباد إن أمكن . ومع الاعتراف بوجود الكثير من التجليات المعاصرة لهذه الثقافة المتوارثة ، إلا أن زيادة أعداد البشر وإحتياجاتهم أظهرتا الحاجة إلى تعاون مجموعات أكبر وأكبر ، وصارت التجمعات النووية الصغيرة ، التى تعيش فى عزلة أشد بالحفريات النادرة . فهى حفريات ثقافية يتم إكتشافها بـين الحين والآخـر فى عالم سار طويلاً فى طريق التوصل والإتصالات . ولعبت التكنولوچيا دوراً مميزاً فى ذلك . والحديث عن التكنولوچيا هنا ينطلق من مفهومها الواسع ، الذى يشمل «التكنولوچيا المجتمعية» ، ويتعامل مع الثقافة فى ضوء تعريفها الأبسط كأسلوب للحياة . إن زيادة الأعداد والإحتياجات تستلزم التجمع وتقسيم العمل والتنافس ، الذي يتخذ أشكالا مختلفة داخل التجمعات وبينها وبين التجمعات الأخرى . كما تتفجر طاقات الإبداع والإبتكار لحل المشكلات ، وسد الحاجات المادية والروحية للأفراد والجماعات . وبتراكم وتبادل الخبرات ينضج العقل تدريجيا ليتوصل إلى العلم ومنهجه . يسير ذلك كله ، جنبا إلى جنب ، مع زيادة وسائل الإتصال والتواصل . ويؤدى إختزان العلم والتكنولوچيا إلى تعاظم قدرتنا على فهم العالم وتغييره . ولأن الإنسان جزء من هذا العالم ، فلم يستثن نفسه . وصار موضوعاً للفهم ، بل والتغيير . لذلك ، لم يعد كافيا أن يأتى «آدم الصغير» كنتيجة للتعارف والتواصل ، وبدأ الحديث عن «مصممى الأطفال» ، وما يمكن أن يقوموا به فى ضوء الفهم والقدرة على التغيير .

الفهم والتغيير

هل نفعلها ونسير فى هذا الطريق إلى آخره ، أم نحجم ونكتفى بتوظيف الفهم فى أهداف أقل طموحاً ، ولكنها قد تكون أكثر أماناً من «تصميم الأطفال» ؟ إن «مشروع الچينوم البشرى» ، الذى سنناقشه فى هذه الكراسة ، هو أهم وسائل الفهم لبرنامجنا الوراثى الكامل . ويمكن على أساسه الوصول إلى فوائد جمة بالنسبة لتشخيص وعلاج الأمراض الوراثية ، وإدراك الكثير عن الخصائص السلوكية وطبيعة الفروق بين الأفراد والجماعات البشرية . وهو يثير الكثير من القضايا الأخلاقية والإجتماعية والقانونية ، فهل نزيد الأمر تعقيداً بتوظيفه فى التطويع الوراثى للإنسان؟ إذا أحجمنا ، هل نكون جبناء ؟ وإذا أقدمنا ، هل نكون حمقى ؟ إن الشجاعة تأخذ وصفاً وسطاً – وخير الأمور الوسط – بين الجبن والحماقة . والمهمة الصعبة ، التى

تنتظرنا ، تتمثل فى التوظيف العاقل لقدرتنا على تغيير العالم بحيث يصير «عالماً جديداً شجاعاً» ، دون أن ننسى الأمر الأصعب ، وهو أننا جزء من هذا العالم الذى يتغير . أرجو قبل أن نستطرق فى هذا الحديث أن نتوقف لحظة أمام عمل إبداعى شهير ، حاول أن يقدم صورة من صور الخيال العلمى المتميز ، إستوحيت منها عنوان الكراسة «عالم جديد شجاع» ، مبينا فى عنوانها الفرعى «عصر الچينوم وإعصاره» مضمونها الخاص .